

مجلة علمية، ثقافية، جامعة، فصلية

ثقافة الهند

المجلد ٤٧

العدد ١-٤

١٩٩٦م



المجلس الهندي للعلاقات الثقافية

آزاد بوان، نيو دلهي

الهند

حضارة الهند المركبة: مفهومها و طبيعتها

بقلم : رشيد الدين خان

الهند: أوضاع اجتماعية و حضارية:

من حيث التعقيدات الاجتماعية والتنوعات الحضارية، تعتبر الهند أكثر من دولة، و أوسع من شعب، و أكبر من قطر واحد، إنها منطقة حضارية متميزة، و عالم صغير للاختلاف الكوني، بل إنها بهذا الخصوص تتميز بمعالم قارة ، ولذا يمكن و ينبغي أن تقارن الهند ، لا بأية بلاد أخرى، بل بقارة كاملة ماعدا قارة آسيا، كما أنها من حيث منزلتها و تنوعاتها الأنثروبولوجية والصوبولوجية و الثقافية تشبه لحد كبير قارات أوروبا و أفريقيا و أمريكا، بدلا من أية منطقة ذات سيادة على انفراد، مع استثناء الاتحاد السوفيتي والصين.

ولكن الأمر الذي يجدر بالنقاش هو ما إذا كان يجب التوفيق بين هذه التنوعات الحضارية و الاختلافات الاجتماعية و تكييفها و إدارتها وتنظيمها، عن طريق إيجاد توازن بين استقلالها الشرعي و مطالب السيادة الوطنية، وذلك في دولة فيدرالية موحدة، و نظامها السياسي المدمج، وهي جمهورية الهند.

وبما أن الهند ثاني كبرى دول العالم من حيث تعدادها السكاني، و سادسها من حيث المساحة الأرضية ، إنها تمثل مختبرا معاصرا فريدا لبناء هوية جديدة. وتاريخيا لم تزل الهند إحدى المجامع الكبيرة لالتقاء مختلف الروافد الثقافية، ومعملا للتمازج العنصري و تهجين الرؤي الدينية والتفكير العلماني، و تعايش اللغات واللهجات. و الحق أن يقال إنها موطن رائع للتفاعل البشري في عديد من مجالات الحياة الاجتماعية.

ثقافة الهند

و تتكون الهند من عدد ضخم من روافد الحضارات، و(١٦) لغة، واللغات التي يتراوح عددها من (٢٥٠) إلى (٢٠٠٠) لهجة، إلى جانب عشرات من المجموعات العرقية، و سبع جاليات دينية منقسمة إلى نحل وطبقات و طبقات فرعية مختلفة، كلها تسكن جنبا إلى جنب في مناطقها الاجتماعية الحضارية الفرعية البالغ عددها (٥٨) منطقه ، و التي في محيط سبع مناطق جغرافية طبيعية تظهر تجانسها الداخلي الواضح وهويتها الخارجية .

و هكذا فإن امتداد الهند الواسع الأطراف مثل قارة يغطي التكوينات الاجتماعية، و العلاقات الاقتصادية، و الأنماط الحضارية، و هياكل المثل والقيم الخاصة و المختلفة باختلاف المناطق، الأمر الذي يعطي انطبعا لنظام قوي نابض بالحياة خاص بالوحدة في التنوع، و إن بعدها القاري وبقاؤها واستمرارها منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة من التاريخ المدون (و ربما (٢٠٠٠) سنة من قبل التاريخ) مضافا إلى ذلك عمق التعقيد الاجتماعي والتنوعات الحضارية، يجعل من الهند أقدم المجتمعات التعددية للعالم وأوسعها، و أكثرها تماسكا مما يندر له مثال في التاريخ البشري.

ومن أهم ما يميز تاريخ هذه المجموعة الفيدرالية الأكثر ضخامة في العالم أعني الهند، صفة الاستمرارية (على رغم التغيير) والاستيعاب الذي لا يمنع حدوث الصراعات) و التركيب (بدون غض النظر عن التناقض الكامل بين الطريفة والنقيضة). و إذا تم فحصها بصورة أكثر دقة فقد تبدو هناك صلة العلية و المعلولية بين هذه المميزات الثلاث ، وذلك أن الاستمرارية نتيجة لنجاح عملية الاستيعاب و التركيب. وما زال الاستيعاب و التركيب عمليتين غالبتين للمجتمع الهندي. ولم يكن هناك مندوحة من ذلك نظرا إلى الأوضاع التي صاحبت نشوء و انتشار وديالكتيكية نموها. إن الامتزاج الخاص بين العوامل الجغرافية و القوى التاريخية قد جعل من الهند كيانا اجتماعيا سياسيا متميزا. أما فيما يتعلق بالموقع الطبيعي لأرضها فهي شبه قارة ممتدة الأطراف، تحد حدودها الطبيعية سلسلة جبال الهملايا التي تفصلها من البر الرئيسي الآسيوي، و تجعلها

حضارة الهند المركبة

تطل على البحر على شكل شبه جزيرة رائعة الشكل، مما وهبها تجانسا أرضيا واضحا لتنشأ فيها حضارة لها ميزتها الخاصة.

وفي فجر التاريخ، إن هجرة القبائل البدائية للمجموعات العرقية التي كانت معظمها تنحدر من أصقاع وسط، و جنوب وسطي، وشمال شرقي آسيا، والتي توجهت في شكل الموجات إلى السهول الهند غنجية المخصبة، ومن ثم نحو شطر الجنوب إلى أنجاد دكن التي كان انحسر عنها الماء، وكان يسكنها أقدم سكان الأرض، الأمر الذي وفر النمط الأول للتمازج بين الأعراق المختلفة على هذه الأرض الرائعة السخية التي كان قدر لها أن تكون إحدى البوتقات الضخمة للأعراق والحضارات في التاريخ البشري.

إن الدرافيديين (DRAVIDIANS) و الآريين (ARYANS) والساميين والمغولايين (MONGOLOIDS)، في أنماط مختلفة من التغير و التأليف، وفروا الطبقة العرقية التحتية للحضارة الهندية - إن قبائل الآريين الوثنيين و ثم قبائل ساكا (SAKAS) ويوتشي (YUG-CHI) و كوشان (KUSHANS) وباكثيريين (BAETHERIAN) وسايثيين (SEYTHIANS) وهونز (HONS) قامت بغزو بهارتفارشا (BHARATVARSHA) في جماعات كبيرة. أما قبائل المسلمين المهاجرة من الأzbek (UZBEKS) والأتراك (TURRMAN) والأفغان و الباتان (PATHAN) فجاءوا في العصور الوسطى، وجعلوا هندوستان موطننا لهم ومع هؤلاء المهاجرين المتعددي الأعراق جاءت لهجاتهم وأنماطهم القائدية والنظم الاجتماعية و الهياكل الخاصة بقيمهم، و كل ذلك ساهم في التنوع الحضاري المتوسع و الانتشار المجتمعي، وذلك ضمن عملية تاريخية لبناء ما يمكن أن يدعى اليوم المجتمع التعددي القاري للهند، والذي يسكن فيه أحد أخماس التعداد السكاني للعالم.

جذر الحضارة الهندية المركبة:

وفيما يخص عمق الحضارة و قوتها و المضاعفات الاجتماعية الأوسع، فقد كان للفتة الهندية الآرية القديمة والفتة الإسلامية الهندية في القرون الوسطى أثر عميق جدا في بناء حضارة هندية متميزة. فأسهمت

ثقافة الهند

الفئة الهندية الآرية في ازدهار الروافد الحضارية الفيديّة التي بدورها ظلت تخصب أمة هذه الأرض العتيقة عبر القرون، وحتى في وقتنا الحاضر تظلّ التحترية للتبادل الثقافي بين مختلف طبقاتها. أما الروافد الإسلامية الهندية فأضافت في نسيج كينونة الهند الوطنية تصميما رائعا لحضارة مركبة، وذلك عن طريق الجدل بين لحة بهاكتامارج (طريق النجاة) وسدا تقاليد التصوف الإسلامي، وبين الطقوس الاجتماعية الهندية و الأعراف التركية الإيرانية للحياة الجماعية، الأمر الذي تمخض عن تأليف جديد بين الحضارات انعكست فيه روح جديدة لقيم الاخلاقية الاجتماعية.

ولذا ليس من العجب أن ندرك أن الحضارة المركبة في الهند ولدت في بيئة التوفيق، والتعاون، والتعايش، بدلا من التعنيد والمجابهة والإبادة الثنائية، بين الروافد الإسلامية المتغلبة سياسيا، ويمثلها بصفة أساسية الامتزاز الحضاري للإيرانيين والأفغان والأترك والنازحين من الآسيا الوسطى وكان معظمهم من بلدان خوارزم وخراسان وبلخ وبخارى في جانب، والروافد الفرعية التقليدية الهندوسية المتشعبة والمنتشرة اجتماعيا، حضاريا على نطاق واسع، و التي كانت بصفة خاصة تغطي طبقات كشاتريا (KSHATRIYA) وفيشيا (VAISHYA) والطبقات الفرعية الوسطى من أمثال راجبوت (RAJPUT) و تهاكور (THAKUR) و جات (JAT) و مارواري (MARWARI) و بانيا (BANIA) حتى كاياشا (KAYASTHA) وكهاتري (KHATRI) القادرين على التكيف والتهايؤ، والطبقات الوسطى المالكة للأراضي مثل يادوف (YADAV) وراجبوت، و تهاكور، و جات، واهير (AHIR) وكورمي (KURMI) وغجر (GUJAR) وما إليهم في الجانب الآخر، على الامتداد الواسع للرقعة الهندية الفنجية.

وإن الجذور التاريخية لبلورة الحضارة المركبة في الهند ترجع إلى الفترة مابين القرن الثاني عشر والقرن السادس عشر الميلادي، عندما شهدت السهول الهندية الفنجية عملية مستمرة للتمازج والاختلاط بين التراثات التي نبعت في ثلاثة أحزمة حضارية محددة جغرافيا، أعني

حضارة الهند المركبة

الحضارة العربية والایرانية والهندية، وكانت تمثل ثلاثة منابع رئيسية للنظم الدينية الخلقية: الإسلام، والزرادشتية و الهندوسية، وهي بدورها تتضمن اليهودية القديمة، والمانوية، والتقاليد الفيديا الفيدانتية على التوالي مع بعض التغيرات و التعديلات.

وان نشوء هذه الحضارة المركبة قد شهد تاريخا مختلف الألوان يمتد على آلاف سنة، تتخلله أحداث المناوشة بالأسلحة، و الصراع لأجل القوة والسيادة، والمجابهات الأكثر دواما يميزها التعاون الأخوي لأناس مختلفين بوجههم أن يتعلموا كيفية التعايش كرفقاء و زملاء، و حثهم على هذا المسعى النفوذ الخير للقديسين و المتصوفة لذلك الزمن و المواطنين الأكثر تنورا، من زعماء، و شعراء، و موسيقار، و حرفيين، و قصاصين، و مصلحين اجتماعيين، و رجال الدولة، وقادة سياسيين علمانيين و وطنيين.

ومن الناحية الفلسفية إن الحضارة المركبة تعني أن نوعا خاصا من الحضارة يقوم على رفض سيادة حضارة واحدة، و إعادة تاييدها على التعددية، و الجهد التوفيقى، سيكون قاعدة سليمة و قوية و مرغوبا فيها، للتطور الحضارى، في مجتمع مختلط و نظام سياسي تعددي، عن طريق عمليات تفاعل إضافية بين رافدين فأكثر، اعتقادا بأن مثل هذا التكافل الثقافى يتصف بحيوية أكثر، وذلك نظرا إلى تميزه بمقبولية أوسع، بالمقارنة مع حضارة واحدة، سواء كانت حضارة الفتة الغالبة أو الفتة العرقية المغلوب عليها في منطقة مثل الهند التي هي عالم قارى مصغر.

و إن ما ندعوه اليوم " بالحضارة المركبة " تتكون من عناصر أكثر من شكله القروسطى الأصلي، فقد اتسعت أبعادها خلال القرنين الماضيين في أعقاب الاحتكاك بالحضارة الأوربية و الانتصار الساحق لحركة التحرير الوطنية.

و إن المبادئ الواسعة لحضارة الهند المركبة، التي في الحديث العادي تدعى " حضارة غنچ و يامونا " (الحضارة المتولدة من التقاء النهرين غنچ و يامونا) تشتمل على سبعة روافد ذات نفوذ على الأقل نذكرها فيما يلى:

ثقافة الهند

١- البصيرة الفيदानتية : التي أشربت بالشعور بالتسامح، وبالاحترام تجاه طرق عديدة للحق، و بجوهر فلسفة بهاغواد غيتا (BHAGVAD GITA) التي تقول إن تحقيق الخلاص عن طريق العمل أفضل واجب إذا أنجز بدون رجاء في الجزاء.

٢- تقاليد بهاكتي مارج (طريق النجاة) : التي تؤكد على الحب كمبدأ محوري للحياة - حب الله و حب الانسان - و كوسيلة للبصيرة الصوفية والحال الموحدة، للحصول على الهدوء و الانسجام و التحرير في الحياة وما بعد الحياة).

٣- الأفكار الخيرية للإسلام: وهي تشمل على الأخوة الانسانية، والعدل كمبدأ رئيسي للاخلاقيات الاجتماعية، و الإحسان إلى المعدمين ، وشجب وجود طبقة الكهنة، و بساطة المعتقدات، و التوحيد، والتوكيد على صفتي " الرحمن " و " الرحيم " بالنسبة إلى الله عزو جل، إضافة الى تعليم الحذب والإحسان إلى خلق الله سبحانه و تعالى، أداء لواجبات الإنسان تجاه خلق الله .

٤- رسالة "صلح كل" (صلح كامل و شامل) التي دعت إليها المذاهب الصوفية الإسلامية: فقد كان المتصوفة المسلمون أبطالاً شعبيين بناء على دعوتهم إلى محبة الانسانية و التأخي بين الطوائف المختلفة ، وتضالهم لحقوق الناس ، و معارضتهم لعدوان السلطان المسلم و الارستقراطية الإقطاعية المسلمة، و كانت زواياهم ملاجئ للباتسين و المنكوبين والمضطهدين والمحرومين، بغض النظر عن طبقاتهم و عقائدهم.

٥- أنيقة و روح القيم التوفيقية للعضارة الاسلامية الهندية : و قد ظهرت هذه الأناقة و الروح في العلاقات الاجتماعية ، و الارتباطات الحرفية، والتعاملات البيشخصية ، و آداب المعاشرة (التي كانت تتميز بالثقافة المصقولة، و الدماثة، و التحفظ ، و احترام الكبار، و الصداقة مع الأنداد والمتمائلين، و الاهتمام بالصفار، و الحذب على المكفولين و ما إليها) والنقاء في الذوق (الجمالي و الجسماني - في الشعر ، و الأشغال اليدوية ،

حضارة الهند المركبة

والمنسوجات ، و فيما يخص خياطة الثياب ، و اقتناء الأواني، و فوق ذلك في المقتنيات المنزلية وأسلوب الحياة و غيره).

٦- كوزموبوليتانية التنمية العمرانية الحديثة : التي سمحت إلى توفير شكل حضارى أولى للمهاجرين من المناطق الريفية النائية، كما أن الأعداد المتزايدة في المدن التي وقعت في دوامة التغير التي خلقها استعمال الآلات، و البيوقراطية المنظمة، و القوانين العلمانية، والتعليم العلمي الغربي بواسطة اللغة الانجليزية ، مضافا إلى ذلك نشوء البورجوازية الهندية، وطبقات العمال و الحرفيين ، في المدن مثل كالكوتا و بومباى و مدراس و اله آباء، (بين منتصف القرن التاسع عشر و منتصف القرن العشرين الميلادي) كل ذلك وفر نمطا مختلفا للحضارة المدنية.

٧- تراث الحركة الهندية الوطنية : إن الحركة الوطنية الرامية إلى تحرير و إعادة بناء النظام السياسي الهندي كانت في نفسها تعبيراً مهماً جداً عن الحضارة المركبة في السياسة الوطنية. فقد وفرت هذه الحركة بمنتهى على عموم الهند لإيضاح القيم و المعايير التي ورثتها الحضارة المركبة، و اكتسبت القوة و الدعم من تراثها، و من جهتها قامت بإثرائها بمثل و قيم معاصرة أكثر ارتباطاً للحياة التعددية مثل الوطنية العلمانية، و الديمقراطية، و الحقوق المتساوية، و الاحترام المتبادل، و التسامح تجاه الاختلافات العقائدية و اللغوية و الاقليمية، إلى جانب ترقية العلوم و التكنولوجيا ، و الطبيعة العقلانية. فقد كانت حركة متعددة الأعراق و الديانات و الأقاليم و اللغات، و حركة طموحة لم تكن ترهب الأجانب أو تكرههم، كما مدت يدها إلى الحركات التحريرية الأخرى في آسيا و أفريقيا، اعتقاداً جازماً منها بأن النضال ضد الامبرالية ، و الاستعمار، و التمييز العنصري، و السيادة العرقية يمثل تحدياً عالمياً و يتطلب استجابة مخططة عبر العالم كله ، إن العناصر الخيرة للحركة الوطنية الهندية كانت تنسجم مع قيم الخيرية ، و الأخوة البشرية، و تعددية الحضارات، و وحدة العمل السياسي، لنيل الحرية، و البناء الديمقراطي،

ثقافة الهند

والنظام السياسي العلماني، و الوطنية ، كجزء للدولية التي تعتمد عناصرها بعضها على البعض.

سنة رواد ممثلين للحضارة المركبة في الهند :

إن الممثلين الستة الأكثر شهرة للحضارة الهندية المركبة عبر ثمانية قرون ، أربعة منهم ينحدرون من القرون الوسطى و الآخران من العصر الحديث ، وهم أمير خسرو (القرن الـ ١٣ و الـ ١٤ الميلادي) والسانت كبير (القرن الـ ١٥ و الـ ١٦ الميلادي) و الجورونانك (القرن الـ ١٥ و الـ ١٦ الميلادي) و راجا رام موهان رايبى Raja Ram Mohan Roy (القرن الـ ١٩ الميلادي) و جواهر لال نهرو (القرن الـ ٢٠ الميلادي) و تجسدت في شخصياتهم و مساعيهم الفكرية النظرة العالمية عن التبادل الثقافي والإبداعية الباطنية النمو . فمن جهة كانوا نماذج أصلية للمبتكرين الفكريين الذين بمحض عبقريتهم و بصيرتهم لم يكونوا تشربوا في وعيهم مبادئ التقاليد العظيمة و الصغيرة التي كانت سائدة في أزمانهم و حسب و إنما دمجوا في نفوسهم العوامل المؤثرة و المتغايرة الخواص و العناصر، و ذلك عن طريق توفيق ثقافي جديد، و بتعبير آخر إنهم تجاوزوا حدود معتقداتهم الخاصة، و توجهات القيم و المعايير والمبادئ الحضارية التي كانت تنسب إليهم، لكي يبحثوا و يصلوا و يتبنوا، من مصادر دخيلة غريبة، يمكن أن تساهم في بناء مجتمع تعددي من نواح أخرى. وبدون أن يتخلوا عن تقاليدهم العظيمة الخاصة بالجملة قاموا على العكس بإثرائها بالتقاليد الصغيرة المتنامية و المختلفة على مستوى المناطق ، للحياة الشعبية، وذلك بتمام الثقة بالذات و حرية العمل

الرواد الاربعة الأوائل- خسرو، وكبير، ونانك، و دارا شكوه - يمثلون العصور الوسطى، في أزمان و قرون مختلفة، و في ظروف سياسية وسيطرة سلالات حاكمة مختلفة، كما يمثلون منازل و مراتب اجتماعية مختلفة في الحياة ، ففي حال شيوع العدوان الاقطاعي- و اللاتسامح الاجتماعي ، و الخضوع والاستسلام المطلق لروح الحضارة الغالبة ، إن

حضارة الهند المركبة

بحثهم عن نظام أخلاقي مختلف كان في الواقع عملا بطوليا رائعا جدا ، والاختلاف الكبير في أصول أسرهم وخلفياتهم ، والأغلال الخاصة التي كانوا يسعون إلى فكها في حياتهم الخاصة، والتماثيل و المحظورات المتوارثة التي قاموا بتحطيمها، ينم عن مدى التزامهم واهتمامهم بالخير العام . و متسلحين بالشجاعة و الصبر، حاولوا تجاوز الحدود التي ورثوها بحكم خلفياتهم الخاصة، لكي يؤكدوا على إيمانهم في الأخوة العالمية ، ومعارضتهم للانقسام العقائدي، و قد كان ذلك شهادة عظيمة لحبهم للإنسانية.

فأمير خسرو، بفضل خفة دمه و كفاءته المتعددة الجوانب ، استطاع أن يعيش سالما في إحدى العصور الأكثر فوضوية و تزعزعا على المستوى السياسي في التاريخ الهندي. و إن جده و حصانة عقله و كفاءته الفائقة لشق طريقه عبر تقلبات الحياة قد أنجته من المصير الوخيم. ولكن الأمير دارا شكوه سقط شهيدا، و ذلك لأن أميرا يطمح إلى العرش الملكي لم يمكنه أن يتضلع بسعة الفكر و العقل الملطف بوجهة نظر علمانية، والمشاركة الشخصية في التبرية والتصوف ، على حساب مناورات تكتيكية لازمة لأجل خطب ود قوى السلطة ورجال الدين الأصوليين. و إن انطلاقه في عالم الفكر كان جريئا لحد لم يحتمله عصره ، كما لم يكن مستساغا على الإطلاق لدى معارضيه الفكريين الذين كانوا أقوياء سياسيا ، و أكثر براعة عسكرية، و على رأسهم أخوة الطموح أورنغزيب.

أما كبير فكان حاكما ، وولد في مجتمع الحرفيين وعاملي الأشغال اليدوية ، من الهندوس و المسلمين على السواء، وكان يعيش بين المتنسكين والرهبان من بلدة بنارس وأما نانك ، فله خلفية ريفية لولاية بنجاب، وكان ابن محاسب للقرية ، و زوج أخته كان يشتغل أميناً للمستودع في دارارستقراطي إقطاعي مسلم، وهو الآخر كان مؤظفا متواضعا لمدة قصيرة في إدارة افغان ، ويمثل كلاهما معا الحضارة الشعبية في نقطة حساسة جدا من الإبداعية الحضارية.

وراجا رام موهان رايب، الرجل البراهماني من بنغال، كان رضع بلبان المعتقدات التقليدية للحكمة الفيदानتية، واطلع على التقاليد الصوفية

ثقافة الهند

للإسلام ، وتعرف على الآداب العربية و الفارسية التي كانت مصدر إلهام للطبقة العليا المثقفة لذلك العصر، كان هو الآخر أحد الرواد الأوائل للإبداعية الباطنية النمو لتحديث الهند. و جواهرلال نهرو يظل لحد كبير علما بارزا جدا لحركة التحرير الوطنية للهند، وكان يملك ذهننا متألقا يتناغم مع التوعية الآسيوية و الاهتمامات العالمية. و فوق ذلك كان تجسيدا لظماً الهند و دول العالم الثالث للديموقراطية والعقلانية، والطبيعة العلمية و النظام السياسي العلماني، و الدوافع الاشتراكية من المساواة و العدالة والسلام العالمي.

إن هذا الانسجام و التوافق في مجال الفكر بين هؤلاء الستة، الذين كانت تفرقهم القرون ، و توخدهم بصيرتهم و حنوهم، يمكن أن ينظر في ضوء هيامهم الشديد بالتغلب على التحامل الذي ورثوه في طبقاتهم ومراتبهم و معتقداتهم، وذلك ليصلوا إلى جميع طبقات أتباعهم، رجالا ونساء مع حب و اخلاص متساويين للجميع ، و ذلك بهدف ترقية الحضارة المركبة في الهند، و لا تزال هذه الحضارة المركبة للهند عاملا حيويا لولادة عالم جديد للتنوع الإبداعي، تربط اهتمامات أوسع حيرية لأجل بناء حضارة جديدة تتأسس على العدالة و المساواة و الكرامة و الازدهار العالمي.

تعريب: ولي أخترا للنوبي